كلمة الأستاذ الدكتور رفعت هزيم
في حفل استقباله يتحدث فيها عن سلفه
الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾

[طه: ٢٥ – ٢٨]. صدق الله العظيم

الأستاذ الجليل رئيس المجمع

الأساتذة الأجلّاء أعضاء المجمع

أيها الحفل الكريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

فإنّ الذاكرة تعود بي اليوم إلى بدء معرفتي بهذا المجمع الأصيل في عهد فتوّتي حينما كنت في مرحلة الدّراسة الثانويّة، إذ ذهبتُ أنا وزميلٌ لي ذات صباح إلى سوق المسكيّة أمام الجامع الأمويّ بدمشق لنشتري ما نحتاج إليه من كتبٍ مستعملة وقراطيس، وعجنا بعد ذلك على زقاق باب البريد لنلتهم بما بقي معنا من نقودٍ ما لذّ وطاب من الصفائح والقطائف. فلمّا بلغنا نهاية الزقاق لاقانا شابٌ يخرج من مبنى عتيقٍ جليل فحيّاه زميلي تحيّة الأصحاب وسأله عن ذلك المبنى وعمّا يفعله فيه فأعلمنا أنه المكتبة الظاهريّة وأنه يستفيد بما فيها من كتبٍ في دراسته الجامعيّة وأخبرنا بأنّ

المكتبة مفتوحة لأمثالنا أيضاً. وهكذا أصبحنا نختلف إلى الظاهرية فينةً بعد فينة لنرفّه عن أنفسنا بما فيها من كتب الأدب الطريف، واستهوانا منها: «البخلاءُ» للجاحظ و«الشعر والشعراء» لابن قتيبة و«الأغاني» للأصفهاني، وقرأنا كذلك لشعراء الغزل: قيس ليلى وجميل بثينة وعمر بن أبي ربيعة وكثيّر عزّة وبشار بن برد وأبي نواس. وقد عرفنا بعد حين أنّ الظاهريّة تتبع مجمع اللغة العربيّة ومقرّه في المبنى المقابل وهو المدرسة العادليّة، فكنّا نرنو إليه أثناء الدخول والخروج ولكننا ما جرؤنا على ولوجه قطّ، ففاتني بذلك رؤيةُ المجمعيين الذين تُوفوا بعد ذلك بزمنٍ قصير كالأساتذة الأجلّاء عزّ الدّين التنوخي ومصطفى الشهابي وجعفر الحسني رحمهم الله.

غير أنّ صلتي بالمجمعيين لم تتأخّر طويلاً، فقد بدأتُ الدراسة في قسم اللغة العربيّة بجامعة دمشق الذي ضمّت هيئةُ التدريس فيه أساتذةً انتُخبوا - في سنين مختلفة أعضاء في مجمع دمشق أو مجمع القاهرة، وكان منهم الأساتذة الأجلّاء: سعيد الأفغاني وعبد الهادي هاشم وشكري فيصل وأحمد راتب النفّاخ وعبد الكريم الأشتر رحمهم الله، ويُضاف إليهم أستاذي الجليل مازن المبارك الذي يُسعدني اليوم أنْ أُحيّيه وأدعو له بدوام العافية وطول العمر وأشكرَ له أنّه أحظاني بمجالسته في رحاب هذا المجمع. ثم ذهبتُ إلى القاهرة فكان معظم أساتذتي هناك وأنا طالب في مرحلة الماجستير من المجمعيين، ومنهم الأساتذة الأجلاء: مهدي علام وكمال بشر وعزّ الدين إسماعيل ورمضان عبد التواب ومصطفى ناصف ومصطفى الشكعة رحمهم الله. وشاءت الأقدار أن تكون إقامتي في مصر سبباً للاتصال بمجمع دمشق، فقد أدّت الخلافات السياسية بعد توقيع اتفاقيّة كامب ديفيد إلى قطع العلاقات بين مصر وسورية فانقطعت بذلك وسائل

الاتّصال بين القطرين، ورُبّ ضارّةٍ نافعة، إذ وجدتُ نفسي فجأةً مكلّفاً من بعض أساتذتي المصريين وممن عرفتهم من أعلام الأدب في القاهرة أن أحمل رسائلهم ومؤلّفاتهم إلى زملائهم في دمشق لأقوم بما كان يفعله البريد من قبل. ولا بأس بأن أروي ما جرى في اللقاء الأوّل بيني وبين ثلاثةٍ من أساتذتي المجمعيين في دمشق لأُظهر بذلك - لمَن لا يعرفهم - بعض صفاتهم وطبائعهم، فأمّا أوّلهم - وهو الأستاذ شكري فيصل - فقد زرته بعد المغرب في منزله بجوار وزارة التعليم العالي (هيئة الموسوعة العربيّة حاليًّا) في أبي رمّانة متأبّطاً ما أُرسل إليه من مجمع القاهرة فاستقبلني مُرحّباً ودعاني إلى شرب العصير قبل القهوة لأنه كان صائماً، فلمتُ نفسي واعتذرتُ إليه لقدومي في وقتٍ غير مناسب فأجابني باسماً بأنّه هو الذي حدّد مكان اللقاء وموعده، وطلبَ إليّ أن آتيه في المجمع - في مقرّه بالظاهريّة - قبيل سفري لأتسلّم منه ما يرغب في إرساله إلى أصحابه في القاهرة، فأُتيح لي بذلك الدخولُ - أوّل مرّة- إلى المجمع والطوافُ في غرفه ومكاتبه ومحادثةُ بعض موظّفيه. وأمّا ثانيهم - وهو الأستاذ النفّاخ - فقد أوجستُ من لقائه خيفةً لأنّني عرفته في عهد التلمذة حادَّ الطبع سريع الانفعال، لا تُخفي أساريرُ وجهه ما في سريرته، فإنْ لحنتُ وأنا أُحدّثه ما سلمتُ من غضبه وحدّة لسانه، ولكنني وجدتُ مخرجاً لتجنّب اللحن والخطأ لأنّ الأستاذ كان لَسِناً فإذا بدأ الكلامَ كان كالسّيل المتدفّق يصعبُ وقفه، فما كان عليّ سوى أن أصغي إليه مكتفياً باستعمال أحرف الجواب تصديقاً لما يقوله أو أدواتِ الاستفهام طلباً للإيضاح، فلمّا وصلتُ قبيل الظهر إلى داره في حي الشيخ محيي الدّين فتح لي الباب شابٌ يماثلني سنًّا أحسَبُ أنه كان واحداً من الخرّيجين والباحثين الذين يستقبلهم الأستاذ في

داره فيفيدون من علمه ومما في مكتبته من النوادر. وقادني الشابُّ إلى غرفة الأستاذ فإذا به متربّعٌ على حشيّةٍ، وتذكّرتُ أننا كنّا أثناء الدراسة نلقّبه بالخليل تارةً والأصمعي تارةً أخرى، فحيّيته وحلفتُ ألا ينهض من مجلسه، فصافحني باسماً وتسلّم منّي ما أحضرته له ودعاني إلى الجلوس، وطلب إلى الشابّ أن يأتينا بكأسين من الشاي، فزال الخوف واطمأنّ قلبي إلى حين لأنّ الأستاذ سألني عن المقرّرات التي درستها فلمّا علم أنها تشمل اللغات الساميّة وبحوث المستشرقين استغرب وامتعض، وسرعان ما عاد - لطيب معدنه - إلى الهدوء والسكينة وعهِد إليّ بطَلِبتِه فودّعته وانصرفت. وكانت الرهبة من لقاء ثالثهم - وهو الأستاذ الأفغانيّ - أعظمَ وأشدّ لأنّه أكبر أساتذتي في جامعة دمشق سنًّا وأعلاهم درجةً، زدْ على ذلك أنّه أستاذ النّحو، فتوقّعتُ أن يسألني عن الموضوع الذي اخترته لرسالة الماجستير، وكنت - وأنا أتّجه إلى منزله قرب ساحة خورشيد (النيربين حاليًّا) - كأني ذاهبٌ إلى امتحانٍ يُكرم المرءُ فيه أو يُهان، ولذا قضيتُ الوقت في الحافلة أستعدّ للحوار الذي سيكون بيننا وأصوغ الجملَ اللازمة لذلك لأتجنّب الوقوع في خطأ لغويٍ أو نحوي. وكانت المفاجأة الأولى عندما فُتح باب المنزل لأنّ الذي فتحه هو الأستاذ نفسه، فاستقبلني باسماً مرحّباً وأدخلني غرفة الضيوف، وبدأ الحديثَ ليُخرجني من الارتباك الذي أصابني، فاستوضحني شؤون الدراسة، وسألني عن أخبار إخوانه في القاهرة، ثم كانت المفاجأة الثانية أن الأستاذ الذي ما سمعناه في الجامعة ينطِق إلا بالفصحى روى لي بلهجةٍ دمشقيّة تزيّنها ألفاظ وعبارات كثيرة فصيحة طرائفَ عن زملائه وأصدقائه، ومنهم الأساتذة: محمد بهجت الأثري وعلي الطنطاوي وإبراهيم مدكور، فذهبتْ عني الرَّهْبة ونسيتُ أنني في كنف أستاذ

أساتذتي، وأحسستُ أنني أُجالس صديقاً عرفته منذ زمنٍ طويل، وبلغ بي الزهوّ مبلغه لأنّ تلك الحظوة لم تخطر لي في الأحلام، ولو أُعطيتُ حينذاك لُهْوةً وهي - عند العرب - أفضلُ العطايا وأجزلُها لما رضيتُ بها عن تلك الحِظة بديلاً. ولا شكّ في أنّ دماثة خلق الأستاذ وطِلاوة حديثه جعلاني أُداوم على السعي إلى لقائه في الأعوام التالية كلما قدمتُ إلى دمشق، فلمّا ذهب للتدريس في الجامعات العربية كانت بينه وبيني مراسلات.

ثم أمضيتُ زهاء عَقدين خارج الوطن دارساً ومُدرّساً فانقطعت صلتي أو كادت بالمجمع والمجمعيين في القاهرة ودمشق، فلمّا عدتُ إلى بلادي مطلَع هذا القرن كان من يُمن الطالع انعقادُ المؤتمر الأوّل للمجمع، فسارعتُ إلى حضور جلساته، وواظبتُ على حضور جلسات مؤتمراته وندواته، وتعرّفتُ بعددٍ من المجمعيين السوريين والعرب فسُررتُ بمحادثتهم وأفدتُ من علمهم وأدبهم.

وهاأناذا اليوم قد زُكّيتُ لأكون عضواً عاملاً في هذا المجمع الذي يوشك أن يُتمّ قرناً من عُمره، وقد سبقني إلى عضويته كثيرون، أسّس الأوائلُ منهم وبَنَوْا البنيان ورفعوا الجدران، وتجشّموا ما تجشّموا لأن معظمهم عاشوا قبل عصر التقانة فلم يفيدوا من الشابكة أو الحاسوب أو الهاتف المحمول، وتبعهم في العقود التالية أعلامٌ تابعوا المسيرة، ومنهم الأستاذة الدكتورة ليلى الصبّاغ رحمها الله التي ارتأى المجمعُ أن أكون خلفاً لها. وأوّل ما يتنبّهُ له المرءُ في شخصيّتها طموحُها العلميّ لتحقيق ما تسعى إليه، وآية ذلك سفرها وحيدةً إلى القاهرة لتنال - وهي شابّةٌ - شهادة الإجازة بمرتبة الشرف الأولى من جامعتها عام ١٩٤٧، ولم يكن ذلك هيّناً كما هي الحال اليوم، فقد أثار ذلك كما يروي ابنُ أخيها «انتقاداتٍ كثيرة في

وسطها الأُسريّ والاجتماعي في وقتٍ كان فيه دخولُ الفتيات الجامعةَ قضيةً خلافية، فما بالكم بسفر فتاةٍ في الثامنةَ عَشْرَة من العمر إلى مصر بمفردها؟ غير أنها تحدّتْ تلك الأعراف التي كانت تكبّل انطلاق المرأة إلى ميادين العلم والعمل، فسافرت بتشجيع من أخيها ووالدتها التي حباها الله عقلاً منفتحاً وذهناً متنوّراً». ويكفي أن يُشار هنا لبيان جراءتها وجسارتها إلى أنّ مدرسة الآداب العليا - التي أصبحت بعد ذلك كلية الآداب بالجامعة السورية (جامعة دمشق) - نشرت أسماء المجازين منها عامي ١٩٣٢ و١٩٣٣ مصحوبةً بصورهم، ويتوقع المرء أن يرى بينها صور المجازات الأربع حتى وهنّ يرتدين الحجاب أو النقاب مع زملائهنّ، ولكنّ البيئة الاجتماعية حالتْ - فيما يبدو - دون ذلك، فاكتفتْ بنشر أسمائهنّ فقط. ثم عادت الأستاذة الصباغ - بعد عَقدٍ من العمل في التعليم والإدارة والتفتيش في التعليم الثانوي بدمشق - إلى القاهرة لمتابعة الدراسات العليا فنالت شهادة الماجستير عام ١٩٦١ ثم شهادة الدكتوراه عام ١٩٦٦، وكلتاهما بمرتبة الشرف الأولى. واستمرّ عملها في التدريس الجامعي في أقسام التاريخ والجغرافية واللغة العربية والآثار وفي كلية التربية بجامعة دمشق من عام ١٩٧١ إلى عام ١٩٩٣، ثم حظيت دون قريناتها العالمات السوريات الجليلات بأنها كانت أول سيّدة في هذا المجمع العريق عندما دخلته في نهاية القرن العشرين.

أمّا المجال الرحب في بحثها وتدريسها فهو تاريخ العرب في العهد العثماني، وكان البدء برسالة الماجستير عن «الفتح العثماني لبلاد الشام»، وتلتها أطروحة الدكتوراه عن «الجاليات الأوربيّة في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر». وقد يظنّ المرء وهو يقرأ عنوان الأطروحة أنّ

موضوعها بعيد عن هذا المجال، ولكن تلك الجاليات الأجنبية لم ترحل مع رحيل الغزاة الفرنجة، بل أقامت مؤسسات تجارية في مدن بلاد الشام وهيمنت على تجارة كثير من السلع استيراداً وتصديراً بفضل رعاية الدول الكبرى وما حصلت عليه من امتيازات من الدولة العثمانية، ولذا درست الأستاذة الصباغ في كتابها هذا الأثر الحضاري لتلك الجاليات في المشرق العربي، ثم أتبعته كتاباً لدراسة «المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني». ويكفي أن نقرأ عناوين بحوثها المتتالية لنتعرّف تنوّع موضوعاتها في هذا المجال، فواحدٌ عن «الوثائق الإيطالية والإسبانية في تاريخ العرب في القرن العاشر الهجريّ»، وثانٍ عن «إفريقية الشرقية في القرن العاشر الهجريّ»، وثالث فيه «صور من الحياة الاجتماعية في فلسطين في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة»، ورابع عن «الغزو البرتغالي للبلاد العربية وموقف الدولة العثمانية في القرن السادس عشر للميلاد»، وخامس عن «الدولة العثمانية والنفوذ البرتغالي في القرن العاشر الهجريّ»، وسادس فيه «ملاحظات حول دراسة الاقتصاد العربي في العصر العثماني»، وسابع عن «معالم الحياة الفكرية في الولايات العربية في العصر العثماني»، وثامن فيه «تقويم جديد للحياة الفكرية في البلاد العربية في المرحلة الأولى من الحكم العثماني».

ويتضح من ذلك أن هذه البحوث وسواها تناولت مجالات الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية للعرب تحت الحكم العثماني. ويحسن بنا أن نقف وقفة قصيرة أمام كتابٍ يُلخّص نظرتها إلى الدولة العثمانية وخاصة في المرحلة الأولى من عهدها، وقد نُشر عام (١٩٨٦) بعنوان «من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول: المؤرّخ المُحبّي وكتابه خلاصة الأثر في أعيان القرن

الحادي عشر»، وبيّنت في تقديمها لهذا الكتاب سبب اهتمامها به فقالت: «لقد وَسَم كثرةٌ من مؤرّخي تاريخ العرب الحديث الحياةَ الفكرية في المجتمع العربي خلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم العثماني - العاشر والحادي عشر والثاني عشر للهجرة - بسمات التدهور والانحطاط والجمود، مندفعين وراء الفكرة الشائعة بأنّ الحضارة العربية الإسلامية التي تأصّلت جذورها وأينعت ثمارها إبّان حِقبة القوة السياسيّة العربية من حياة الخلافة العباسية قد أصابها الحكم العثماني - إلى جوانب عوامل أخرى - بالوهن والذبول...، وقد آن الأوان لأن يُمعن المؤرّخ العربي النظر في تراث تلك المرحلة تحقيقاً ودرساً وتنقيباً وأن يُقوّمه بتجرّد». وتبين لها بعد أن فصّلت القول فيما ورد في ذلك الكتاب الضخم بأجزائه الأربعة وفي غيره من مؤلفات هذا المؤرّخ الدمشقيّ الذي توفي مطلَع القرن الثاني عشر للهجرة «أنّ هذا العصر لم يكن عصر جدبٍ ومحلٍ في الفكر العربي، بل ولا ركودٍ نسبيٍ في مسرى الحضارة العربية الإسلامية - كما يحلو للكثيرين أن يصوّروه - إنما كان عصراً زاخراً بالتموّجات السياسية والاقتصادية والاجتماعية مثلما كان غنيًّا بعطاءاته الفكرية المتنوعة...، وقد جعل المحبّي قارئه في عصره وحتى الوقت الحاضر على صلةٍ شبه دائمة بعمق الحضارة العربية الإسلامية وسعتها، مع تأكيدٍ للعنصر العربي فيها وإبرازٍ له في كل مناسبةٍ كانت تأتي، وأكّد بذلك - في عنفوان سلطة الأتراك العثمانيين الحاكمة لبلاد العرب في عصره - السيادة الحضارية العربية ضمن الحضارة الإسلامية، تلك السيادة التي كانت تظهر واضحةً للعيان بنفوذ اللغة العربية بل وسيادتها في جزءٍ كبير من العالم الإسلامي...، وكان المحبّي في مؤلفاته مدعّماً لمفهوم الأصالة العربية في الحضارة العربية الإسلامية، فهو واحدٌ من الروّاد الأول الطليعيين في حركةٍ عربية وليدة تنادي

بضرورة صيانة العنصر العربي في كيان الحضارة العربية الإسلامية وتنميته، أي إن القرن الحادي عشر الهجري كان فيه رؤى من المفهوم القومي العربي الذي رأى القرنُ الثالث عشر انتعاشه التدريجي، إنما ليس بأُطره الضيقة المتزمّتة قوميًّا وإنما بمفهومه الذي وسّعه الإسلام وأغناه بحيث يستوعب حضاريًّا العالم بأسره». ويبدو أنّ دراستها لمؤلّفات المحبّي الدمشقيّ دفعتها إلى تحقيق كتاب «المِنَح الرحمانيّة في الدولة العثمانيّة» لمعاصره المؤرّخ المصريّ محمّد ابن أبي السّرور البكريّ الصديقيّ، وكان نشره عام ١٩٩٥، كما أرادت أن تُطلع الباحثين العرب على آراء بعض المستشرقين في هذا الميدان فترجمت لهم كتاب (The Ottoman Turks) للمستشرق الإنكليزي (كريزي) Creasy، ونشرته بعنوان «تاريخ الأتراك العثمانيين».

وثمّة مجال آخر ينبغي بيان ما حقّقته الأستاذة الصبّاغ فيه، فقد كان الأستاذ الدكتور أحمد طربين رحمه الله يُدرّس مقرّر «منهجيّة البحث التاريخيّ»، ويبدو أنه طبع أمالي لهذا الغرض، فلمّا أُعير إلى جامعة الكويت عام ١٩٧٢ حلّت الأستاذة الصبّاغ محلّه في تدريس المقرّر، ولْنقرأ ما يقوله في عمل زميلته عند عودته بعد ثلاث سنوات: «وجدتُني أُقلِّبُ كتاباً عن منهجية البحث وضعته الزميلة، ودُهشتُ كيف تسنّى لها استكمال محتويات هذا الموضوع النظريّ و العمليّ، إذ وعتْ كلّ ما كنتُ أحاول تدريسه، فزادت عليه واستعانت بعديدٍ من المؤلَّفات العربية والأجنبية، حتى إنني أعترف بأنها تجاوزت الخطّة التي وضعتها لكتابي، وصار كتابُها العمدة الأصيلة في موضوعه». وقد رأى الأستاذ الدكتور مروان المحاسني أنّ هذا الكتاب «هو الألصقُ باختصاص الأستاذة لأنّ الحاجة إلى نظرةٍ عصريةٍ فاحصة تربط بين النظريات التاريخية الحديثة ومسارات المؤرّخين العرب

القدامى كانت حاجةً ملحّة لإظهار سَبْق ابن خلدون إلى معظم المسالك التي يسلكها المعاصرون كـ(بروديل) F. Braudel و(توينبي) A.Toynbee و(دوبي) G. Duby، و(هيغل) G. Hegel».

وإذا تركنا عملها في التدريس جانباً، فقد كان للأستاذة الصبّاغ مشاركة فعّالة في ميدانٍ آخر، إذ اختيرت رئيسةً لقسم الحضارة العربية في هيئة الموسوعة العربية بدمشق عندما صدر النظام الدّاخلي لها عام ١٩٨٤، فكان عليها - قبل عهد الحاسوب والأتمتة - أن تراجع أمّهات المصادر التاريخية ومعاجم الأعلام والموسوعات العالمية لتنتقي منها ما تراه مناسباً للموسوعة الجديدة، فبلغ ما أنجزته حتى تركها العمل فيها عام ١٩٨٨ خمسة آلاف جذاذة، ولكن صلتها بالهيئة لم تنقطع لأنّ عشرات الموضوعات في «الموسوعة العربية» تحمل اسمها.

وكانت الأستاذة الصباغ قبل تدريسها في الجامعة وعملها في المجمع وفي هيئة الموسوعة العربية تتحدّث في الإذاعة وتلقي محاضرات على الجمهور تلبيةً لدعوة الجمعيات الثقافية ومنها جمعية الندوة الثقافية النسائية بدمشق، ويبدو أن معظم الأحاديث والمحاضرات كانت عن الشخصيات النسائية، وقد اختارت بعضها لتنشره عام ١٩٩٦ في كتاب عنوانه «من الأدب النسائيّ المعاصر العربيّ والغربيّ» تضمّن أحاديثها عن شاعرتين عربيتين وأربع أديبات من الغرب، وعلّلت اختيارهنّ بأنّ «لكل واحدةٍ منهنّ سيرتها الثائرة والمثيرة، وعطاءها المبتكر الفريد الذي سعت من خلاله لتحقّق وجودها ولتبثّ في حنايا مجتمعها إبداعاً خصيباً، ولتمنح الحضارة الإنسانية قيمةً خلاقة، ولتكون نموذجاً للأجيال في الكفاح والعطاء». أما الشاعرتان فإحداهما فدوى طوقان التي «تتبّعت في أشعارها أحداث وطنها

فلسطين ونضال المقاومة والانتفاضة خطوةً خطوة»، والأخرى نازك الملائكة التي كانت تِربها، وقد جذبها اسمها إليها، لأنه يوحي - كما تقول - «نازكاً وملائكةً»؛ فالاسمُ ناعم رقيق ويعني اللطف والظَّرف، و«الكنية» أثيريّة شفّافة، وهي شباب، والعطاء شعرٌ وعاطفة وموسيقا»، حتى إذا قرأتْ ديوانها الثالث «قرارة الموجة» رأتْ فيه «محاولةً من الشاعرة للكشف عن أعماق وجودها الإنسانيّ... وخلاصةَ صراعِ إنساننا العربيّ المتطوّر وخلقِه لذاته الداخلية الأصيلة... وبعثاً للحياة في نفس الشاعرة». وأما الأديبات الغربيّات فاثنتان منهن إنكليزيتان وهما الشاعرة الصادحة في قفصٍ: (اليزابيث براوننغ) El. Browning - زوجة الشاعر (روبرت براوننغ) - التي توفيت عام ١٩٦١ واشتهرت بديوانها «قصائد وجدانيّة من البرتغاليّة»، والروائية (شارلوت برونتي) Charlotte Bronte التي توفيت شابّةً عام ١٨٥٥ واشتهرت بروايتها «جين إير Jane Eyre»، والأخريان من الولايات المتحدة الأمريكية، إحداهما: المعجزة (هيلين كيلر) Helen Keller الفتاةُ العمياء الصمّاء البكماء التي استطاعت أن تتعلّم باستعمال أصابع اليدين حتى تخرّجت من الجامعة بمرتبة الشرف ثم نشرت عدة كتبٍ عن حياتها وتوفيت عام ١٩٦٨ عن ثمانية وثمانين عاماً، والثانية: الروائية (بيرل باك) Pearl Buck التي اشتهرت بروايتها «الأرض الطيبة The Good Earth» ونالت جائزة نوبل للآداب عام ١٩٣٨ ثم توفيت عام ١٩٧٣ عن واحد وثمانين عاماً. ولم تكتف الأستاذة الصباغ بهذا الكتاب لبيان اهتمامها بالمرأة بل أضافت إليه كتابين آخرين نشرت أحدهما وهو «المرأة في التاريخ العربي: في تاريخ العرب قبل الإسلام» عام ١٩٧٥ والآخر وهو «نساء ورجال» عام ١٩٩٦. وأحسَبُ أن المرء لا يحتاج إلى الإطالة في التعريف بها لأنّ أجيالاً من

الباحثين تلمذوا لها في المدارس الثانوية وفي الجامعة طوال أربعة عقود وقرؤوا مؤلّفاتها وبحوثها في تاريخ العرب والإسلام، وقد أصبح بعضهم أساتذةً أعلاماً يسيرون على خطاها ويتابعون مسيرتها، وسيجد الباحثون دراسة مسهبة عنها في كتابٍ مخصص لها ضمن سلسلةٍ من الكتب أراد بها المجمع التعريف بأعضائه الراحلين وهم الصفوة والنخبة من اللغويين والأدباء والعلماء في هذا البلد رحمهم الله أجمعين.

أيها الحفل الكريم

قد أحسن أعضاءُ هذا المجمع العريق بي الظن فضمّوني مشكورين إليهم، واستقبلني شيخاي الجليلان الأستاذان مروان المحاسني ومحمّد محفّل اليوم بهذا الثناء الذي جعلني هنيهةً متبختراً مختالاً غير أنّني - بحمد الله - نحّيتُ عنّي الغرور سريعاً لأنني أدرك أنّ البون شاسع بيني وبين العلماء المجمعيين في المعرفة، فأنا من الذين قال فيهم المولى - عزّ وجلّ -: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥]، ولذلك أدعوه - جلّ شأنه - بما أمرنا به فأقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤]، وأقرُن الدعاء بالاجتهاد في طلبه ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً لأكتشف أنني كمن يُبحر في محيطٍ بعيد المنتهى، فأتذكّر قول الإمام الشافعيّ:

وإذا ما ازددتُ عِلماً زادني علماً بجهلي

وغاية ما يمكنني عمله أن أسعى - قدر استطاعتي - إلى رفد المجمع في المجالات التي أشتغلُ بها منذ ثلاثة عقود مستعيناً بما أُتيح لي من معرفةٍ قليلة بالعربيةّ و باللغات الساميّة التي تَنَبَّهَ علماؤنا القدامى إلى الصلات الوشيجة بينها وبين العربية، ومنهم ابن حزم المتوفى في منتصف القرن الخامس الهجري إذ يقول:«إنّ الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً أنّ السريانية والعبرانية

والعربية – التي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير – واحدةٌ تبدّلت بتبدّل مساكن أهلها، فحدث فيها جرسٌ كالذي يحدث من الأندلسي إذا رامَ نغمة أهل القيروان، ومن القيرواني إذا رام نغمة الأندلسي، ومن الخراساني إذا رام نغمتيهما...، فمن تدبّر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم، وأنها لغةٌ واحدة في الأصل». غير أنّ المتقدّمين لم ينتفعوا بالمنهج المقارن في البحث اللغويّ والنّحويّ – أي المقارنة بين العربية وأخواتها – إلا نادراً، حتى جاء العصر الحديث فأخذ به المستشرقون ثم الباحثون العرب الذين درسوا في بلاد الغرب، وهو ذو نفعٍ كبير لأنه – فيما أزعم – يجلو كثيراً من المسائل المتعلقة بأصول الألفاظ واشتقاقها ودلالتها. ولا يستغني الباحثون اليوم عن الرجوع إلى معاجم اللغات الساميّة التي يذكر مؤلّفوها فيها – غالباً – صيغ اللفظ في اللغات الأخرى إذا كان من الألفاظ الساميّة المشتركة، وهذا يعني أن قارئ معجمٍ خاص بالأكادية – مثلاً – يستطيع معرفة ما يناظر كل لفظٍ من ألفاظها في العربية والعبرية والآرامية والأوغاريتية وسواها، فإن رغب في معرفة الألفاظ المشتركة بين العربية وأخواتها فعليه – وهنا موضع المشقة والعناء– أن يقرأ جميع المعاجم الخاصة بهذه الأسرة اللغوية التي ألّفها المستشرقون باللاتينية أو الفرنسية أو الإنكليزية أو الألمانية أو غيرها. وقد رأيت أن أقلّل ما ينفقه القرّاء – على اختلاف مشاربهم – في ذلك من وقتٍ وجُهد، فشرعتُ في وضع معجم يورد الألفاظ في العربية ويُتبع كلًّا منها ما يقابله – مبنىً ومعنىً – في معظم اللغات الساميّة مع بيان أوجه الاختلاف إنْ وُجدتْ. وسأحاول كذلك الإسهام في وضع «المعجم التاريخيّ» الذي طال انتظاره مع أنّ مرسوم إنشاء مجمع

القاهرة عام ١٩٣٢ نصَّ على أن يكون وضعه من أهم أغراضه، ولاشكّ في أن هذا المعجم سيتضمن الألفاظ الدخيلة، وقد عملتُ منذ سنين على جمعها - ماعدا المماتَ والمهجور منها - وتتبعِ أصولها وتاريخ تعريبها وتطوّر صيغها ودلالاتها وبيانِ ما يقابلها في العربية حتى أنجزتُ - بحمد الله - هذا العمل وسمّيته «معجم الألفاظ الدخيلة في الفصحى المعاصرة». وتتوق نفسي إلى المشاركة في إنجاز مشروع «الذخيرة اللغويّة» الذي أصابه ما أصاب مشروع «المعجم التاريخيّ» من تباطؤ وتعثّر مع أنّه حجر الأساس في المجالات المختلفة لعمل المجامع اللغوية وخاصةً مجالي المعاجم والمصطلحات. وأعدُكم بأنني لن آلو جَهداً في الإسهام في أعمال المجمع الأخرى لكي ينهض مع المجامع الشقيقة بلغة القرآن الكريم وينشرَها بين الناس، فلا يجوز أن تبقى الفصحى لغة الكتابة والمحاضرة فحسب، بل ينبغي السعي لجعلها لغة الخطاب والمحادثة في حقول المعرفة كافةً لأنّ اللغة هي عنوان شخصية المرء، فمن كان عربيًّا متعلّماً فعليه أن ينطق بلسانٍ عربيٍ مبين، وتحلّ اللهجاتُ بذلك المحلّ الثاني. ويظهر أن مشكلة الفصحى اليوم ذاتُ وجهين، أحدهما: عدم استعمالها في العلوم التطبيقية تدريساً وبحثاً في الجامعات العربية ماعدا السورية، لأنّ أولي الأمر في معظم البلاد العربيّة يعتقدون أنها ليست أهلاً لذلك، فهؤلاء غافلون عن تاريخ الفصحى القديم عندما بدأت عملية الترجمة في العصر الأموي، ثم نشِطت وازدهرت في العصر العباسي، ويظن المرء أنه لم يبقَ شيء من تراث الفرس والهنود والإغريق والرومان لم يُنقل في ذلك الزمان من الفارسية والسنسكريتية واليونانية واللاتينية وسواها إلى العربية، سواء منه ما اتصل بالعلوم كالطبّ والصيدلة والرياضيات والفلسفة والمنطق، أو ما اتصل بالصناعة، أو ما اتصل

بـالأدب والأسـمار والعجائـب، أو مـا اتصـل بالأديـان والملـل والنِّحـل، فأصبحت العربية بـذلك - كالإنكليزيّة اليـوم - لغـة العلـم فـي العـالم كلـه. ويكفي للدلالة على ذلك الإشارة إلـى بعـض الألفـاظ فـي علـوم الرياضـيات والكيمياء والفلك التي أخذتها لغات الغرب من العربيّة علـى مـرّ القـرون ومـا زالت مستعملةً فيها إلى يومنـا هـذا، فهـي مدينـةٌ بلفظـي Algorithm/Algorism «الخوارزميّة» المستعملين في الحساب للدلالة على نظـام العَـدّ العَشـريّ أوّلاً ثـم فـي البرمجـة فـي الحاسـوب إلـى اسـم الخـوارزميّ (ت ٨٤٧م) وبلفـظ Algebra «الجَبْر» إلى كتابه «الحساب فـي الجبـر والمقابلـة»، و تحـوّل لفظـا: الكُحل والقلي عندهم إلـى: Alcohol وAlcali، واللفـظ اللاتينـي cifra مـأخوذ من اللفظ العربي «الصِّفْر»، وقد استعملت لغـات الغـرب صـيغاً متشـابهة منـه بمعنى «العدد» أو «الرقم»، ثم تحوّل بعد ذلك بدلالته الجديدة علـى «الصـفر» مند القرن الخامس عشر إلى zero. وإذا كان الباحثون يختلفون في أصل كلمـة «الكيمياء» فهم متفقون على أنّ جابر بـن حيّـان (ت٨١٣م) هـو مخلّـص هـذا العلم مـن أيـدي المشـعوذين ومبتكـر المـنهج التجريبـيّ؛ وأنّ لغـات الغـرب أخذت كلمة Alchemy – بـأداة التعريـف – مـن العربيـة. كمـا أخـذت أسـماء بعض النجوم، ومنها: Altair «الطـائر» و Vega «الواقـع» اختصـاراً مـن «النسـر الطـائر» و«النّسـر الواقـع» وDeneb «ذنَـب» اختصـاراً مـن «ذنـب الدجاجـة» و Fomalhaut «فـم الحـوت» و Bet el geuse «بيـت الجـوزاء» و Rigel «رِجْـل الجوزاء/ رِجْل الجبّار» وAldebaran «الدَّبَران» — وهـو بـين الثريّـا والجـوزاء- وAlgol اختصاراً مـن «رأس الغُـول» و Achernar «آخـرُ النَّهْـر/ الظَّليم». ولـذا سخر شاعر النيل حافظ إبراهيم مـن هـؤلاء الغـافلين مطلـع القـرن المنصـرم، فقال بلسان الفصحى:

رمَوني بعُقمٍ في الشباب وليتني عقِمتُ فلمْ أجزع لقولِ عُداتي
وسعتُ كتابَ الله لفظاً وغايةً وما ضقتُ عن آيٍ بهِ وعظات
فكيف أضيقُ اليوم عن وصف آلةٍ وتنسيق أسماءٍ لمخترَعات
أنا البحر في أحشائه الدُّرُ كامنٌ فهل سألوا الغوّاص عن صدفاتي؟

والوجه الآخر للمشكلة إهمال الفصحى لا مِن الطلبة والشُداة بل ممن يجيدونها مع أنه يُفترضُ بهم أن يكونوا حُماتها ورعاتها ليقتدي بهم غيرُهم، وليس هذا التقصير وليد اليوم لأنّ طه حسين وصف حال أساتذته في الأزهر وأساتذتِه الأوربيين في الجامعة المصريّة، فقال: «وازنَ طلابُ الأزهر بين شيوخهم الذين كانوا لا يُعربون إلا حين يقرؤون في الكتب، فإذا تكلموا غرقوا وأغرقوا طلابهم في اللغة العامية إلى أذقانهم أو إلى آذانهم، وبين أساتذتهم أولئك الأوربيين الذين كانوا يعربون حين يقرؤون وحين يفسّرون وحين يخوضون معهم فيما شاء الله من ألوان الحديث، وكانوا يسألون أنفسهم كيف أُتيح لهؤلاء الأوربيين ما أتيح لهم من العلم بأسرار اللغة العربية ودقائق آدابها، وكيف لم يُتح هذا النوع من العلم لشيوخهم أولئك الأجلّاء؟».

وقد أغفلتُ عن عمدٍ مسألة المصطلحات بأوجهها الثلاثة ترجمةً وتعريباً وتوحيداً، لأنها - فيما أرى - ليست لُبّ المشكلة اللغويّة، فالمنهج الصحيح يقتضي أن تكون الفصحى لغة العلم والتعليم في المجالات كافة، ولن يضيرها عندئذٍ تعدّدُ المصطلحات أو عدمُ الاتفاق في ترجمتها أو في تعريبها أو أن يكون بعضها أعجمياً لأنّ الاستعمال كفيل بالتخلّص من العلل والمثبّطات شيئاً فشيئاً أو - على الأقل - خفضها إلى الحدّ الأدنى. وإذا كنا نُرجعُ هجرَ الفصحى حتى منتصف القرن العشرين إلى أسبابٍ كثيرة أهمّها تفشّي الأميّة فأيُّ عذرٍ في أن يهجرها اليوم ملايين العرب ممن أنهوا التعليم

الثانوي أو تابعوا التعليم في الجامعات والمعاهد ونال كثيرون منهم شهادات الدكتوراه والماجستير والدبلوم؟

أيها الحفل الكريم

لا خِيار أمام حماة الفصحى ومُحبّيها سوى الأخذ بما ورد في إعلان مجمع القاهرة بمناسبة احتفاله بالعيد الماسيّ في آذار عام ٢٠٠٧، وهو «العمل على صيانة الفصحى والمحافظة عليها وتيسيرِها وتطويرها وجعلِها مواكبةً لروح العصر، قادرةً على الوفاء باحتياجاته ومطالبه، متسعةً لمجالات المعرفة الشاملة والمتسارعة بلا حدود، باعتبار هذه اللغة وعاءً لتراثنا وثقافتنا وذخيرةً لمكتنزاتنا وتجليات إبداعنا، وآلةً لإنتاجنا المعرفيّ قديمِهِ وحديثِه، ومنطلقاً لطموحاتنا ومواجهتنا للتحدّيات التي يفرضها علينا واقعٌ عربيّ وعالميّ جديد لابدّ فيه من تأكيد الهويّة وترسيخِ القدم والأخذِ بأسباب التقدّم ووسائله والإسهامِ فيه كما أسهمنا عبر التاريخ عندما كانت العربية لغة العولمة وجامعةَ الثقافات ولسانَ الشعوب».

وفي الختام أعِد ببذل الجُهد لتحقيق ما قالته الراحلة الأستاذة الدكتورة ليلى الصبّاغ رحمها الله بعد انضمامها إلى مجمعنا هذا، وهو «العمل مع أعضائه على حماية اللغة العربية وتعزيز مكانتها وإغنائها والارتقاء بها لتواكب التطوّر الحضاري العلمي العالمي».

وبالله التوفيق، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٢٩/ ٣/ ٢٠١٧

* * *